الحيوان في الحكاية الصوفية

د. فائز طه عمر

كلية الاداب – جامعة بغداد

المقدمـــــة

أشرنا في دراستنا (النثر الصوفي في الادب العربي الـــى نهايـــة القـــرن الخامس الهجري) الى ظهور الحيوان عنصرا ذا شأن في الحكايات الصوفيـــة [١] ، على نحو عام ، دون محاولة تحديد أشكال هذه الحكايات وأنواع الحيوان الـــذي ظهر فيها ، والابعاد الرمزية له .

وربما يكون هذا البحث محاولة لتحقيق ذلك مما لم نقم به في اثناء دراستنا النثر الصوفي لاسباب تتعلق بسعة الموضوع وتعدد مناحيه الموضوعية والفنيـــة ، وامتداده الزمني ، فضلا عن كونه موضوعا بكرا يحتاج الى تسليط اضواء عامـــة عليه تظهر ابرز معالمه .

ان موضوع الحيوان في القصص العربي ليس جديدا ، فقد درسه عدد مـــن الباحثين [٢] ، على انهم جميعا أغفلوا تتبع الحيوان في الحكاية الصوفية ، فضـــلا عن حكايات اخرى كان الحيوان فيها شخصية مهمة ، وذات ابعاد رمزية احيانـــا ، مما يشير الى نقص كبير في هذه الدراسات ، ولاسيما أن ما اغفل مـــن حكايـــات الحيوان هو اكثر عمقا ودلالة وارتباطا بمناح فكرية واجتماعية .

ستكون محاولتنا في هذا البحث ، منصبةً على تحليل الشخصية الحيوانية في الحكايات الصوفية من خلال عدد مهم من الحكايات التي وجدناها في المصادر الصوفية الاساسية ، موضحين طبيعة الحدث الحيواني فيها ، وطبائعَ الحيوان ، ومناقشة مسألة الدلالة الرمزية للحيوان في هذه الحكايات ، منطلقين ، في ذلك كله ، من حقيقة ان هذه الحكايات معبرة عن التجربة الصوفية بخصائصها التي تتفرد بها ، وتتميز بها من غيرها من التجارب الانسانية .

والاداء القصصي في الادب الصوفي يصدق عليه مصطلح الحكاية [٣] ، اذ ان الصوفي يسرد حكايته بما يعنّ له من طريقة يراها مناسبة لاظهار ما رآه اوتخيّله او سمع به من حدث معين دون اي شرط فني محدد ، فالصوفي لم يكن له قصد فني من هذه الحكايات .

حيوانات الحكايات الصوفية :

لانريد ، هنا ، اعطاء احصائية دقيقة عن عدد الحيوانات التي ظهرت في الحكايات الصوفية ، فهذا أمر يصعب البتّ به ، اذا ان عدداً من المصادر الصوفية لم يصل الينا ، على أننا سنذكر الحيوانات التي وجدناها في الحكايات الصوفية المتيَسرة لاهمية معرفتها في هذا البحث .

تكاد تكون الحكايات التي ظهر فيها الطير بانواعه [٤] ، والسبع [٥] (اي الاسد) من اكثرها عدداً ، وربما لانها من اقربها دلالةً على الفكر الصوفي ومنحاه ، ربما لطبيعة ما يمكن أن يحمله الطير والسبع من امكانية الاشارة الى دلالات

معينة ، أو لأنّ الاحداث التي رآها الصوفي أو تخيلها أو سمعها قد ظهر فيها هذان الحيوانان اكثر من غيرهما .

ولاتعني كثرة ظهور الطيور والسبع في الحكايات الصوفية أنّ هذه الحكاية التي ضمنتها اكثر نضجاً من حكايات اخرى ظهرت فيها حيوانات اخرى ، على نحو متفاوت في الكثرة ، فقد ظهر ، فيها ، الحمار [٦] ، والكلب [٧] ، والحوت [٨] ، والسرطان [٩] ، والتمساح [١٠] والبق [١١] ، والابل [١٢] ، والفرس [١٣] ،والخفاش [١٤] ، والجمل [١٥] ، والشاة والظبي [١٦] ، والسمك [١٧] ، والغراب [١٨] ، والعقـوب [١٩] ، والحية [٢٠] ، والفيل [٢١] ، والنمل [٢٢] ، والدود [٢٣] ، والضفدع [٢٤] وغيرها .

ولابد من الاشارة الى أن بعض الحيوانات قد ظهرت معاً في حكاية واحدة ، كظهور السبع والبقة [٢٥] ، والضفدع مع الحية [٢٦] والكلب مع الطير [٢٧] والابل مع الاسد [٢٨] .

طبائع الحيوان في الحكاية الصوفية :

الحيوان في الحكاية الصوفية ذو طبائع خاصة مثيرة مختلفة كلياً عمّا هو مألوف في الحياة الاعتيادية . فقد ظهر الحيوان في عدد من هذه الحكايات كائناً عاقلاً يتكلم احياناً ، ويشعر بما يشعر به البشر ، فقد وجدنا في احدى الحكايات طيراً ابيض يسبّح لله تعالى ، إذ روى بعض الصوفية عن احدهم (يقول : خرجتُ يوماً الى نيل واسط ، فاذا انا بطير ابيض في وسط الماء ، وهو يقول : سبحان الله على غفلة الناس)[٢٩] فالطير يبدو هنا اعقل من الناس إذ يعجب من غفلتهم .وحكي عن الصوفي أبي سليمان الخواص أنه(قال : كنتُ راكباً حماراً لي يوماً

، وكان يؤذيه الذباب فيطأطئ رأسه ، فكنتُ اضرب راسه بخشبة كانت في يدي ، فرفع الحمار راسه ليّ وقال : اضرب فانك على راسك تُضرب . قيلَ له يـا أبـا سليمان وقع لك ذلك او سمعته ؟ فقال : سمعتهُ كما سمعتني) [٣٠] ويتكرر مشـهد الحيوان المتكلم في حكايات اخرى [٣١] ولاندري انْ كان الكلام الذي نُسب لـهذه الحيوانات هو من لغة الحيوان ، أم من لغة البشر ؟ على اننا لانلغي ارتباط هـذا الفعل الحيواني الخارق للعادة بالموروث الديني الذي نجده في قصة سـليمان (ع) مع النمل وفهمه كلامها [٣٢] ، كذلك حواره مع الهدهد [٣٣] . فربما كان الصوفـي الذي نقل كلام الحيوان قد حدثت له كرامة تمثلت في فهمه لغة الحيوان . ومسـألة تسبيح الطّير او الفرس او غيرهما من الحيوان ، لله تعالى ، تمثل حقيقة دينية نصّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى : (وإنْ من شيء الا يسبح بحمده) [٣٤] .

وثمة حيوانات ظهرت في الحكاية الصوفية تفهم كلام الانسان وتتأثر بـه تأثراً بالغاً ، مما نجده في حكاية سمنون (بعد ٢٩٧هـ) الذي اثر كلامه في طـير تواجد حتى مات ، فقد روى احدهم قائلاً : (كنتُ في مجلس سمنون ، فوقف عليـه رجل ، فسأله عن المحبة ، فقال : (لا اعرف اليوم من اتكلم عليه يعلم هذه المسألة ، فسقط على رأسه طائر ، فوقع على ركبته ، فقال : إن كان فهذا . ثم جعل يقول ـ ويشير الى الطير ـ بلغ من احوال القوم كذا وكذا ، فشاهدوا كذا وكذا ، وكانوا في حال كذا وكذا ، فلم يزل يتكلم عليه حتى سقط الطير عن ركبته ميتـاً) [٣٥] ، وهذه الحكاية لاتختلف عن حكاية الجمال التي تطرب لصوت عبـد ذي صـوت شجي وتتواجد حتى تموت [٣٦] ، فهي تظهر الجمل مُدركاً ومنفعلاً.

ويؤكد احد الصوفية المتأخرين أنّ حكاية الطير مع سمنون فيها (دلالة على ان الحيوان يستمع ويفهم وانما يمتنع عليه الكلام الامع من افهمه الله كلامه كأجابة الهدهد السليمان (عليه السلام) بسبب تاخره عنه بقوله وجئتك من سبأبنبأ يقين وكقول النملة لاصحابها ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ...) [٣٧] وثمة حكايات اخرى يظهر فيها الحيوان صاحب وفاء من ذلك ماروي عن ابراهيم الخواص (٢٩١هـ) قوله :(كنتُ في البادية مرة ، فسرت في وسط النهار ، فوصلت الى شجرة ، وبالقرب منها ماء ، فنزلت فاذا بسبع عظيم اقبل فأستسلمت ، فلما قرب مني إذا هو يعرج ، فحمحم وبرك بين يدي ووضع يده في حجري ، فنظرت فاذا يده منتفخة فيها قيح ودمفأخذت خشبة وشقت الموضع الذي فيه القيح وشددت على يده خرقة ومضي، فاذا اتا به بعد ساعة ومعه شبلان يبصبصان لي وحملا إلي رغيفا) [٣٨] ، فهنا نجد ولدي هذا الاسد الجريح يحركان ذنبيهما شكرا لهذا الصوفي ، ويهديانه رغيفا ، على حسن صنيعه مع والدها .

ولانريد من الاكثار من الأتيان بامثلة من هذه الشخصيات الحيوانية التي تمتلك شيئا من العقل وبعضا من الشعور [٣٩]

وظهر نوع آخر من الشخصيات الحيوانية في الحكاية الصوفية ، يتمثل بالحيوانات المسخرة للصوفي الذي سلك الطريق واخلص في كبح غرائزة وقواه الشهوية ، لذلك فقد منح كرامة ،منها ، السيطرة على الحيوان وتسييره على النحو الذي يريده ، مما نجده في حكايات عديدة تكاد تكون اكثر عددا من الحكايات التي ضمت شخصيات حيوانية (عاقلة) ، فالقصد منها ، في الاغلب ، اظهار كرامة الصوفي .

ولعل من اكثر الحكايات المعبرة عن هذه الشخصية الحيوانية المسخرة للصوفي ، حكاية الشاة التي تتردد على سهل التستري (٢٨٣هـ) كل ليلة ليحلبها ويشرب من لبنها ، اذ يحكى عن احدهم انه اراد الوقوف على مصدر قوت سهل فلم يخبره أحد فاراد التحقق بنفسه اذ يقول : (فقصدت مجلسه ليلة من الليالي فاذا هو قائم يصلي ، فاطلت القيام وهو قائم لايركع ، فاذا انا بشاة جاءت فرجمت باب المسجد وانا اراها ، فلما سمع حركة الباب ركع وسجد وسلم وخرج وفتح الباب ، فدنت الشاة منه ووقفت بين يديه ، فمسح ضرعها ــ وكان قد اخذ قدحاً من طاق المسجد ــ فحلبها وجلس وشرب ثم مسح بضرعها وكلمها ... فذهبت في الصحراء ورجع هو الى محرابه) (٤٠)

وان هذه الشاة تكاد تكون قريبة الشبه بالشخصيات الحيوانية (العاقلة) ولاسيما ان التستري قد كلمها ، على نحو غير مألوف ، وهي مسخرة له .

ويروي الصوفي ابو الحسن علي بن محمد المزين الصغير (٣٢٨هـ) ان أفعى سُخّرت له لتخلصه في قوله : (كنت في بادية تبوك فتقربت الى بئر لاستقي منها فزلقنت رجلي فوقعت في جوف البئر فرأيت في البئر زاوية واسعة فاصلحت موضعاً وجلست عليه وقلت : ان كان مني شيء لافسد الماء على الناس ، وطابت نفسي وسكن قلبي . فبينا أنا قاعد إذا بخشخشة فتأملت فأذا بأفعى تنزل على البئر فراجعت نفسي فاذا هي ساكنة فنزلت ودارت بي وانا هادئ السير لايضطرب عليّ . ثم لفّت بي ذنبها وأخرجتني من البئر وحللت عني ذنبها ، فلا ادري ارض ابتلعتها او سماء رفعتها ؟ وقمت فمشيت) (٤١)

وثمة حكاية اخرى ، رددتها مصادر الصوفية [٤٢] مشابهة للحكاية السابقة ، حدثت للصوفي ابي حمزة محمد بن ابراهيم البغدادي (٢٨٩هـ) يرويها بنفسه بطريقة السرد الذاتي ، ملخصها انه قد وقع في بئر فلم يحاول الخروج متوكلاً حتى سخر الله تعالى له سبعاً احرجه وخلصه .

ان الحكايات الاخرى التي تضم شخصيات حيوانية مسخرة لاتختلف في سياقاتها ونتائجها عما ذكرناه من الحكايات ، وهي كثيرة [٤٣] ولايفيد الاكثار منها توضيحاً اكثر لها . على اننا نجد من المناسب ذكر حكاية فيها ان الصوفي لايسخر له الحيوان وحده بل مايتعلق به كالصوت ، وهي حكاية عجيبة ومثيرة رواها الصوفي ابو علي الروذباري (٣٢٢هـ) بقوله : (كنا في البادية جماعة ومعنا ابو الحسن العطوفي ، فربما كانتتلحقنا الفاقة وتظلم علينا الطريق ، فكان ابو الحسن يصعد تلاً ويصيح صياح الذئاب حتى يسمع كلاب الحيّ فينبحون فيمر على صوتهم ويحمل الينا من عندهم معونةً) [٤٤] .

وقد ظهرت انماط حيوانية اخرى ، في الحكاية الصوفية ، قريبة الشبه بالشخصية الحيوانية المسخرة ، غير انها تؤدي تاثيرات اخرى ، كان يكون هذا التاثير تنبيهاً يجعل ممن تنبهُ متجهاً الى سلوك الطريق الصوفي في العبادة ، كما حصل لذي النون المصري (٢٤٥هـ) في هذه الحكاية التي يرويها بنفسه ، بعد ان سأله احدهم عن سبب توبته فأجاب : (اردت الخروج من مصر الى بعض القرى ، فنمت في الطريق في بعض الصحارى ففتحت عيني ، فاذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الارض ، فأنشقت الارض فخرج منها (سكرجتان)

(٤٥) احداهما ذهب ، والاخرى فضة ، وفي احداهما سمسم ، وفي الاخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا .

فقلت : حسبي ، قد تبت ، ولزمت الباب،الى ان قبلني الله (عز وجل) (٤٦) . وقد يظهر حيوان معين في احدى الحكايات ليؤدي عبرة ودرساً من خلال الصوفي الذي يظهر له هذا الحيوان ، نحو ما روي من ان السري السقطي (٢٥١هـ) (سئل ... عن الصبر، فجعل يتكلم فيه ، فدبت على رجله عقرب ، وهي تضربه بابرتها ضربات كثيرة ، وهو ساكن . فقيل له : لم لم تنحها ؟ فقال : استحييت من الله تعالى ان اتكلم في الصبر ، ولم أصبر) (٤٧) فقد تهيأت هذه العقرب لهذا الصوفي مما ساعده على ان يعطي لمريديه درساً بليغاً في الصبر .

وتُظهر بعض الحكايات ذات الشخصيات الحيوانية اثر الحال الذي يكون فيه الصوفي ، في تعامله مع الحيوان ، فقد روى احدهم انه كان مع ابراهيم الخواص (في البرية فبتنا عند شجرة ، اذ جاء السبع فصعدت الشجرة الى الصباح ، لايأخذني نوم ، ونام ابراهيم الخواص والسبع يشمه من رأسه الى قدميه ... ثم مضى . فلما كانت الليلة الثانية بتنا في مسجد في قرية ، فوقعت بقة على وجنه فضربته ، فأن أنة ، فقلت : هذا عجب ، البارحة لم تجزع من الاسد ، والليلة تصيح من البق ؟فقال: اما البارحة فتلك حالة كنت فيها بالله عز وجل ، واما الليلة فهذه حالة انا فيها بنفسي) (٤٨) .

وثمة حكاية اخرى فيها شخصيات حيوانية ادت تأثيرات مشابهة (٤٩)

الشخصية الحيوانية في الحكاية الصوفية

نقصد ، هنا ، الى بيان الطبيعة الفنية للشخصية الحيوانية في الحكاية الصوفية ، بحسب الاصطلاح القصصي ، فبعد ان تعرفنا افعال الحيوان وطبائعها ، من المهم ان نشير الى المستوى الفني لهذه الشخصيات في سياق هذه الحكايات المتميزة والفريدة .

ومن الممكن القول ان الشخصية الرئيسية في الحكاية الصوفية ، في الاغلب ، هوالصوفي نفسه الذي روى ما وقع له ، او ما تراءى له ، او ما سمعه ، لذا فان الشخصيات الحيوانية كانت شخصيات ثانوية فيها ، ظهورها كان من اجل اظهار كرامة هذا الصوفي او ذاك مما هو قصد الصوفية ، بعامة ، من ايراد الحكايات الخاصة بهم .

على اننا نؤكد ، هنا ، ان ظهور الشخصيات الحيوانية في الحكاية الصوفية كان ظهوراً قوياً في الكثير من الحكايات ، فقد كانت بعض الشخصيات الحيوانية فاعلة ومؤثرة في سياق الحدث او الاحداث الاساسية لهذه الحكايات ، ولكنها من اجل ابراز كرامة الصوفي في طريق التصوف الشاق ، ومن هذه الكرامات ، كما رأينا ، فهم الصوفي لغة الحيوان وسيطرته عليه وتسخيره اياه ، على ان ظهور الحيوان بفعل المنقذ في عدد من الحكايات التي اشرنا الى بعضها هو امر يجعله موازياً للشخصية الرئيسية ، مما رايناه في شخصية الافعى التي انقذت المزين الصغير ، وفي السبع الذي انقذ ابا حمزة ، وفي مانراه في شخصية الكلب في هذه الحكاية التي يرويها ابو سعيد الخراز (٢٨٦هـ) بقوله : كنت يوماً امشي في الصحراء فاذا قريب من عشرة الكلاب لرعاةٍ شدّوا عليّ ، فلما قربوا مني جعلت

استعمل المراقبة [٥٠] ، فاذا كلب ابيض قد خرج من بينهم وحمل على الكلاب فطردهم عني ، ولم يفارقني حتى تباعدت عني الكلاب فلم أره) [٥١] وثمة حكايات اخرى [٥٢] يظهر فيها الحيوان بطلا منقذا .

وربما ظهر الحيوان منبها للصوفي على امر ما فيمكن عده شخصية رئيسية لانه مارس فعلا مؤثرا في الصوفي نفسه ، وكان ذا اثر كبير في مسار الحكاية ، مما وجدناه في حكاية ذي النون مع القبرة العمياء ، وما نجده في حكاية العصفور الذي امتنع عن الاكل من يدي السري السقطي الذي روى حكايته لاحد اصحابه قائلا له : (الا اعجبك من عصفور يجئ فيسقط على هذا الرواق فأكون قد أعددت له لقيمه فافتها في كفي فيسقط على اطراف انامليي فيأكل ، فلما كان في وقت من الاوقات سقط على الرواق ففتت الخبز في يدي فلم يسقط على يدي كما كان ، ففكرت في العلة في وحشته مني ، فوجدتني قد أكلت ملحا طيبا ، فقلت في سري : أنا تائب من الملح ، فسقط على يدي فأكل وانصرف) [٥٣] . فالعصفور هنا ، بفعله ، قد نبه السري على تخلية عن الزهد في ماعدا الخبز . وثمة حكاية اخرى [٥٤] يظهر فيها الفيل ذا اثر فاعل في احداثها ، مما يجعلنا نعده شخصية رئيسية ، بجانب شخصية الصوفي الذي حدثت له هذه الحكاية التي هي اكثر نضجا من غيرها من الناحية الفنية ، وهي طويلة ، بعض الشئ ، ولايتسع مجال البحث لاقتباسها كاملة ، بل نلخصها ، فقد حدث ان احد الصوفية كان في سفينة في البحر ، فتعرضت السفينة لعاصفة هوجاء ، فتوجه ركابها بالتضرع لله تعالى ناذرين النذور ، وكان نذر هذا الصوفي ألا يأكل لحم الفيل مما اثار دهشة الاخرين لغرابة نذره ، ثم تكسرت السفينة غير ان الصوفي نجا ومعه جماعه ،

حيث وصلوا الى ساحل جزيرة لم يجدوا فيها طعاماً ، حتى وجدوا فيلاً صغيراً ذبحوه واكلوا لحمه ، فامتنع هذا الصوفي عن أكله لانه نذر ذلك ، حتى كان الليل ، وبينما القوم نيام جاءت الفيلة تنتقم لولدها ، فقتلت القوم كلهم ، عدا الصوفي لانه لم يأكل لحم صغيرهم ، فقد كافأوه لهذا اذ حمله احد الفيلة واوصله الى حيث العمران والبشر ، بسرعة خارقة .

ومن الممكن النظر الى الشخصيات الحيوانية المتكلمة على انها شخصيات قصصية رئيسية ، كما رأيناها .

وهناك حكايات صوفية معدودة وبسيطة كانت حيوانية محضة ، من الطبيعي ان يكون الحيوان فيها هو الشخصية الرئيسية او هو البطل ، منها ما رواه أحد الصوفية بقوله : (تجوّع صنف من الطير اربعين صباحاً ، ثم طاروا في الهواء ، فرجعوا بعد ايام ، فكان يفوح منهم رائحة المسك) [٥٥] فالطيور ، هنا ، هي الشخوص الوحيدة في هذه الحكاية ، مما نجده في حكاية اخرى يرويها الصوفي ابو العباس احمد ابن مسروق (٢٩٩هـ) قائلاً : (كنت آوي الى مسجد فيه شجرة يأوي اليها بلبلان،فقد احدهما صاحبه وبقي الاخر على غصن ثلاثة ايام ، لاينزل يرعى ولايلتقط من الارض شيئاً ، فلما كان اخر اليوم الثالث مر به بلبل فصاح فذكره صاحبه فسقط عن الغصن ميتاً) [٥٦] فالبلبل ، في هذه الحكاية ، ذو شعور قوي أردى به ، وهو البطل فيها وحده . وهناك حكايات اخرى حيوانية الشخصيات ، بيد انها اكثر بساطة من هاتين الحكايتين[٥٧] .

وعلى نحو عام ، كانت اكثر الشخصيات الحيوانية هي شخصيات ثابتة ظهرت بوتيرة واحدة ولاتغادرها طوال زمن الحكاية ، أي هي شخصية مسطحة

(لاتتغير صورتها طوال أحداث القصة ولا تأخذ منها شيئاً) [٥٨] ، ولعل طغيان هذا النمط على الشخصيات الحيوانية في الحكاية الصوفية راجع الى قصر هذه الحكايات ، في الاغلب ، واقتصار اكثرها على سرد خبر واحد او خبرين في الاكثر ، مما لايعطي المجال لرصد التغيرات التي تطرأ على هذه الشخصية ، لذا كان عرضها ناضجاً مكتملة النمو اكثر انسجاماً مع قصر هذه الحكايات ، فضلاً عن ان المقصود من اغلب هذه الحكايات هو الصوفي نفسه و ليس الحيوان ، كما رأينا . على ان هناك شخصيات حيوانية قليلة ظهرت في عدد قليل جداً من حكايات الصوفية ، من الممكن وصفها بانها شخصيات ثابتة (تنكشف لنا تدريجياً خلال القصة ، وتتطوّر بتطور حوادثها ، ويكون تطورها عادة نتيجة لتفاعلها المستمر مع هذه الحوادث) [٥٩] ، ومن الممكن القول إن شيئاً من هذا الوصف يعبر عن طبيعة شخصية الطيور التي تجوعت اربعين ليلة ، وشخصية البلبل الذي فقد صاحبه ، الواردتين في الحكايتين الأخيرتين ، فضلاً عن غيرهما ، على نحو اقل وضوحاً ، كما في شخصية الطير الذي استمع الى كلام سمنون في المحبة ، في الحكاية المذكورة سابقاً .

دلالة الحيوان الرمزية

لانبغي ، هنا ، تجليل الشخصية الحيوانية في الحكاية الصوفية ، بل محاولة مناقشة الدلالة الرمزية للحيوان في هذه الحكاية ، من خلال بعض الاراء التي قيلت في هذا الشأن . على اننا نؤكد عدم استبعاد التفسير الرمزي للحكاية الصوفية وما تضمنه من احداث وشخصيات مما هو منسجم مع طبيعة التعبير الصوفي من الافكار والمعاني ، على هذا نجد ان محاولة علي زيعور التي حاول

فيها تفسير بعض الحكايات الصوفية التي ظهر فيها الحيوان تفسيراً رمزياً ونفسياً و(ميثولوجياً) محاولة عميقة ، فقد حلل ثلاث حكايات ظهر فيها الحيوان [٦٠] ، منطلقاً من فكرة جاء فيها (الكرامات طريق يقودنا الى التعرف على دنيا الرمز في الحضارة العربية،انها خير حامل للرمز،وهي المدخل الواسع الى عالم الرمز) [٦١]

ولابد من الاتيان بمثال من احدى محاولاته المتعلقة بتأويل احدى الحكايات المذكورة في هذا البحث ، وهي حكاية عصفور السرّي السقطي الذي اعتاد الاكل من يديه ، حتى انقطع فجأةً ، وعودته الى ذلك بعد تخلي السري عن وضع التوابل او الملح مع الخبز ، فقد انتهى زيعور الى القول : (خضوع العصفور هو ان السقطي واقع تحت الكشف الذي يكون بنور في القلب . اما التوقف فانقطاع موقت للمعرفة الروحية ، لم تلبث ان عادت لاستمراريتها) [٦٢] .

ومع ان تفسير هذه الحكايات بخاصة ، والكرامات بعامةً ، على هذا النحو (من شانه ان ينفي عنها صفة الكرامة) [٦٣] ، نجد ان اغلب المحدثين يؤكدون التفسير الرمزي لجميع الكرامات ، مما نجده ، مثلاً عند د. عبد الرحمن بدوي الذي علق على فهمه كرامات ابن عربي (٦٣٨هـ) بقوله : (اما انا فاسلك في فهمها نفس المسلك الذي دلنا عليه الصوفية انفسهم وهو التأويل بالرمز ، فانا استبعد منها كل معنى حسي مادي ، وارى فيها رموزاً وعلامات على تجارب روحية باطنة ، قصد منها ان تكون للناس نبراساً يهتدون به في حياتهم الروحية) [٦٤] ، على انّ زعمه يُبطّل بما اكده عدد من مصنفي الكتب والرسائل الصوفية انفسهم بوجوب تصديق حصول الكرامات حقيقة ، لانهم يرون ان من رواها هم

اناس عرفوا بالصدق والديانة فلا يجوز تكذيبهم [٦٥] ، وهو امر منسجم مع حديث الصوفية عن هذه الكرامات والحكايات على انها وقائع حدثت حقيقةً ، ومع موقف بعض الصوفية من الحيوان الذي يرونه عاقلاً ، فقد روي ان الصوفيّ أبا الحسين النوري (٢٩٥هـ) :(سمع كلباً ينبح ، فقال : لبيك وسعديك .. فسئل عن ذلك (فقال) .. واما الكلب فقال تعالى : " وان من شئ الايسبح بحمده ") [٦٦] وكذلك فعل ابوحمزة البغدادي بعد سماعه صياح غراب (على سطح الجامع فزعق ابو حمزة وقال : لبيك لبيك ..) [٦٧] .

على ان ابن عربي قد جعل من بعض الحيوانات اصطلاحات فكرية ذات مفاهيم صوفية ، فقد عد العنقاء ، والورقاء ، والعقاب ، والغراب [٦٨] على هذا النحو ، مما يرجح التفسير الرمزي لهذه الحيوانات في الحكاية الصوفية ، فضلاً عن هذا فان شارح الرسالة القشيرية (وهو صوفي متاخر) أشار الى معان رمزية لبعض الحيوانات الواردة في بعض الحكايات من ذلك قوله في حكاية ذي النون ورؤيته القبرة العمياء ، الواردة في هذا البحث :(قوله فاذا أنا بقنبرة الخ... أي فكانت له لائحه وردت من الجانب الاقدس تسبب عما عاينه فيها ان نفسه الكريمة اخذت في السير لقطع منازل السائرين ومراحل السالكين الذي هو كناية عن قطع مشتهيات النفس وردها عن مألوفاتها على حسب عاداتها) [٦٩] ، ومع ان هذا الكلام يحتاج الى شرح ، فيه اشارة الى معنى رمزي بعض الشئ غير ان هذا الشارح نفسه يشرح حكايات اخرى شرحاً يبعدها فيه عن الرمز وينظر اليها على انها وقائع منسجماً مع رأي اكثر الصوفية في ذلك ، من ذلك حديثة عن حكاية الطيور التي تجوعت اربعين ليلية ، الواردة في الصفحات السابقة ، بقوله :

(صنف من الطيور الخ ... ، يشير الى تنبيه النوع العاقل بافادة خلق غيره ممـــا لايعقل عسى ان يتخلق بمثل خلقه ولاسيما اذا تامل ما يترتب على ذلك من ذكـــاء الرائحة وخفة الطيران لتكثر اعماله ويسمو مقداره ..) [٧٠] ومع اننا نرى ان هذه الحكاية ، ربما كانت ، من اكثر الحكايات الصوفية رمزية .

ان محاولة تحليل شخصية الحيوان في الحكاية الصوفية تحليلاً رمزياً امـر يحتاج الى جهد خاص وعناء طويل ، لذا اكتفينا بما اوردناه انسجاماً مع حجم هـذا البحث.

الهوامـــــــش

(١) انظر النثر الصوفي في الادب العربي : ١٨٤ .

(٢) منهم : د. داود سلوم : قصص الحيوان في الادب العربـــي القديـم . وعبد الرزاق حميدة : قصص الحيوان في الادب العربـــي ، جعفـر صاحب محمد : قصص الحيوان في الادب العربي القديـم (١٩٩٥م) وغيرهم .

(٣) انظر المعجم الأدبي : ٩٧ . دراسات ادبية : ٨/١ . النثر الصوفـــي ١٧٧ .

(٤) الرسالة القشرية :٦٩/١ ، ٣١٤ - ٣١٥ ، ٤٢٠ ، ٥٢٢ ، ٢ / ١٦٩ ، ٦٣٤ - ٦٣٥، ٦٧٩، ٦٩٣ - ٦٩٤ ، ٧٠٦ ، ٧٠٩ . حليـــــة الاولياء : ٩/ ٢٦٨ ، ٣٦٣ ، ١٠/ ٢٣٨ ، ٣١٣ التعـــرف لمذهـــب اهل التصوف : ١٨٩ . صفة الصفوة : ٢/ ٣٩٣ . احيـــاء علـــوم الدين : ٤/ ٣٦٠ الطبقات الكبرى : ١/ ٩٤ .

(٥) القشـــيرية : ١/ ٥٢٤ ، ٢/ ٦٨٤ ، ٦٩١ - ٦٩٢ ، ٧٠٠ ، ٧٠٥ ، ٧٠٨ ، حلية الاوليـــاء : ٨/ ٤ ، ٢٩ - ٣٠ ، ١٠/ ٧٧ ، ٣٢٠ - ٣٢١ ، ٣٧٧ . التعرف : ١٧٨ . المقدمة في التصوف : ٣٥ صفـــة الصفوة : ٢ / ١٤٧ .

(٦) القشيرية : ٢/ ٦٧٦ ، ٧٠٧ ، ٧١٠ - ٧١١ . عوراف المعـــارف : ٢١٨ .

(٧) اخبار الحلاج : ٥٢ ، اللمع : ٢٠٥ ، القشيرية : ١/ ٩٧ – ٩٨ ، ٢/ ٥١٨ ، ٦٣٤ – ٦٣٥ . حلية الاولياء : ١٠/ ٣٣٠ . صفة الصفوة : ٢/ ٤٤٨ ، ٤/ ١٠٠ .

(٨) القشيرية : ٢/ ٦٨٣ ، حلية الاولياء : ١٠/ ١٥٦ – ١٥٧ ، ١٧٦ .

(٩) حلية الاولياء : ١٠/ ٣٠٨ .

(١٠) م.ن : ٩/ ٣٦٦ .

(١١) القشيرية : ٢/ ٦٩١ – ٦٩٢ .

(١٢) م.ن : ٢/ ٧٠٠ ،

(١٣) حلية الاولياء : ٩/ ٣١٨ .

(١٤) م.ن : ٩/ ٣٦٣ .

(١٥) القشيرية : ١/ ٢٢٥ ، ٢/ ٦٤٣ – ٦٤٤ ، ٧٠٩ ، ٧١٢ . اللمع : ٢٧٠ – ٢٧١ .

(١٦) القشيرية : ٢/ ٤٩٦ . حلية الاولياء : ١٠ / ٢١٠ . رسالة الملامتية : ١١٨ . صفة الصفوة : ٤/ ٦٥ .

(١٧) القشيرية : ١/ ٥٠٦ ، حلية الاولياء : ١٠ / ٢١٥ .

(١٨) حلية الاولياء : ١٠ / ٣٢١ .

(١٩) اللمع : ١٨٩ ، القشيرية : ٢/ ٥٦٩ .

(٢٠) القشيرية : ٢/ ٤٤٦ ، ٤٧٠ . حلية الاولياء : ١٠ / ١١٣ . التعوف ١٨٦ . صفة الصفوة : ٢/ ٢٦٥ .

(٢١) حلية الاولياء : ١٠ / ١٦٠ .

(٢٢) القشيرية : ٢/ ٤٧٧ .

(٢٣) اللمع : ٢٠٣ .

(٢٤) حلية الاولياء : ١٠/ ١١٣ .

(٢٥) صفة الصفوة : ٤/ ١٠٠ .

(٢٦) حلية الاولياء : ١٠ /١١٣ .

(٢٧) القشيرية : ٢/ ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(٢٨) م.ن : ٢/ ٧٠٠ .

(٢٩) التعرف : ١٨٩.

(٣٠) عوارف المعارف : ٢١٨ وانظر القشيرية : ١/ ٢٢٥ ، ٢ / ٦٧٦ .

(٣١) انظر حلية الاولياء : ٩/ ٣١٨ ، القشيرية : ٢/ ٦٩٣ - ٦٩٤ .

(٣٢) النمل : ١٨ - ١٩ .

(٣٣) النمل : ٢٢ - ٢٦ .

(٣٤) الاسراء : ٤٤ وانظر شرح الرسالة القشيرية : ٣/ ٨٣ .

(٣٥) التعرف : ١٨٩ ، حلية الاولياء : ١٠ /٣٦٠ ، القشيرية : ١/ ١٦٩ احياء : ٤/ ٣٦٠

(٣٦) اللمع : ٢٧٠ - ٢٧١ ، القشيرية : ٢/ ٦٤٣ -٦٤٤ .

(٣٧) شرح الرسالة القشيرية : ٤/ ٩٩ .

(٣٨) القشيرية : ٢/ ٧٠٥ .

(٣٩) حلية الاولياء : ٩/ ٣٦٦ ، ١٠ / ١١٣ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، ٣٢٠ - ٣٢١ التعرف : ١٧٨ ، القشيرية : ١ / ٤٢٠ ، ٢ / ٦٧٩ صفة الصفوة : ٢/ ٢٦٥ للتمثيل .

(٤٠) حلية الاولياء : ١٠ / ٢١٠ ، صفة الصفوة : ٤/ ٦٥ .

(٤١) صفة الصفوة : ٢/ ٢٦٥ .

(٤٢) حلية الاولياء : ١٠ / ١٧٧ ، ٣٢٠ - ٣٢١ . التعرف : ١٧٨ ، القشيرية : ١/٤٨٣

(٤٣) أنظر حلية الاولياء : ٨/ ٤ ، ٩/ ٣٦٦ ، ١٠ / ٢١٠ ، ٢١٥ ، القشيرية :١/ ٩٧-٩٨ ، ١٧٢ ، ٥٢٤ ، ٢/ ٤٤٦ ، ٤٧٠ صفة الصفوة : ٢/ ٤٤٨ ، ٤/ ١٠٠ والطبقات الكبرى : ١/ ١٠٩ . وغيرها كثير .

(٤٤) اللمع : ٢٠٥ .

(٤٥) مثنى سكرجة (بضم السين) : الاناء .

(٤٦) القشيرية : ١/ ٦٩ .

(٤٧) م.ن : ١/ ٥١٦ .

(٤٨) م.ن : ٢/ ٦٩١ - ٦٩٢ ، وانظر صفة الصفوة : ٤ / ١٠٠ - ١٠١ حكاية مشابهة.

(٤٩) م.ن : ١/ ٥١٦ ، ٢/ ٥٦٩ ، ٧٠٨ ، وانظر اللمع : ١٨٩ ، حلية الاولياء : ١٠ / ٣١٣ الطبقات الكبرى : ١ / ٩٤ .

(٥٠) المراقبة : : محافظة القلب عن الردية . (ومعان اخرى) معجم المصطلحات الصوفية: ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٥١) صفة الصفوة : ٢/ ٤٤٨ .

(٥٢) انظر حلية الاولياء : ١٠ / ١٧٦ ، ٣٠٨ . القشيرية :٢/٦٨٣ ، ٧٠٠ وغيرها.

(٥٣) حلية الاولياء : ١٠٠ ، ١٢٣ . القشيرية : ٢ / ٦٧٩ (في الرسالة القشيرية : ، الجنيد هو الراوية) .

(٥٤) حلية الاولياء : ١/ ١٦٠ - ١٦١ .

(٥٥) القشيرية : ١/ ٤٢٠ .

(٥٦) الطبقات الاكبرى : ١/ ٩٤ .

(٥٧) حلية الاولياء : ٩/ ٣٦٣ مثلا.